المناسبة في العبادة بين الظرف والسلوك

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٧م

جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمة الله عليه عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: **(إِذَا بَقِيَ نِصْفٌ مِنْ شَعْبَانَ فَلا تَصُومُوا)**.

أما رواية أحمد وأصحاب السنن ففيها: **(إذا انتصف شعبان فلا صوم حتى يأتي رمضان)**.

ويروي الإمام البخاري رحمة الله عليه في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها تقول: **(كان رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لا يَصُومُ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إِلاَّ رَمَضَانَ)**.

ورواية مسلم رحمة الله عليه تقول فيها عائشة رضي الله عنها: **(كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلاّ قَلِيلاً)**.

وفي رواية عن أبي هريرة يرويها الإمام مسلم رحمه الله يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **(لا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلا يَوْمَيْنِ)**.

وأنا أقرأ هذه الأحاديث وجدت أنها بمجموعها ترسل إلينا مضمونًا ينبغي أن نتنبه إليه، فالنهي عن الصيام في النصف الثاني من شعبان، والنهي عن صوم أيامٍ قبلَ رمضان، وتأكيدُ عائشة رضي الله تعالى عنها على أن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يستكمل صيام شهر إلا رمضان، وأنه حين كان يصوم شهرَ شعبان كان يصومه إلاّ قليلاً... إن هذا كله يضعنا أمام قضية من القضايا التي تختص بالعبادة وهي:

تمييز المفروض والواجب الذي فرضه الله سبحانه وتعالى عن غيره.

فحينما لا تميز الأمة بين رتبة الفريضة وسواها تتحول حركاتها إلى عادات، فهو يصلي ما اعتاد أن يصليه في الفريضة، ويصلي ما اعتاد أن يصليه من النافلة، ويصوم في عاداتٍ اعتادها، دون أن يدرك منـــزلة الفريضة وهو يؤديها.

والفريضة حدٌّ من حدود الله، وشعيرةٌ عظيمة من شعائر الله تعظّمُها القلوب، والأعمالُ مرهونةٌ في مقاديرها وقيمها بنيّاتها وحضورِ القلب فيها، وهذا يستلزم حضورًا قلبيًّا في معنى الفريضة، فقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري رحمة الله عليه في صحيحه أن الله تعالى قال في حديث قدسيّ: **(وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ)**.

وكان الإمام مالك رحمة الله عليه يكره صوم ستٍّ من شوال مع ثبوت حديث صيامه، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كراهةَ أن يختلط الأمر على الأمة فلا تميز بين الفريضة والنافلة، وكان يحبّ للعلماء أن يصوموا هذه الأيام سرًّا، فإذا صاموا ستًّا من شوال صاموها سرًّا، حتى تبقى منـــزلة الفريضة واضحة لا تلتبس ولا تختلط بشيء آخر.

هكذا نفهم من جملة هذه الأحاديث كيف نتهيّأ لأمرٍ عظيم نحن مقبلون عليه في شهرٍ كريم جعله الله سبحانه وتعالى ظرفًا زمانيًّا لتنـــزّل القرآن، حيث قال: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥]

فإذا أراد الإنسان أن يعرف قيمة الشهر وما فيه، فإنه ربما استدل على هذا باعتبار الله سبحانه وتعالى له، حيث جعله ظرف التنـــزّل لكلامه العظيم.

أما الأمر الثاني الذي أحببت في هذه العجالة أن أشير إليه فهو:

مراعاة التناسب في إسلامنا بين الظرف والسلوك.

فقد يكون الظرف مقتضيًا حالةً من التوسيع المادّيّ، وقد يكون مقتضيًا تركًا للمادة وانقطاعًا وتبتّلاً.

فإسلامنا دين الحياة..

إسلامنا دين الإعمار..

إسلامنا دين النهضة..

إسلامنا دين التوازن بين المادة والروح..

* وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى في شهر رمضان فرَّق بين ليله ونهاره، ومع أنه أعطى لِلَيلِه خصوصيةً، لكنه صرَّح في نصّ كتابه العزيز: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} [البقرة: ١٨٧]

وهكذا يجعل الله قضية من القضايا التي تتعلق بالتكاثر البشريّ الإسلاميّ قضيةً تتخلل عبادةً روحانيةً في شهرٍ عظيم.

نعم، فالإسلام لا يهمل في سلوك الإنسان جانبًا دون جانب، لكنه يوازن.

ونحن نقول دائمًا للعلمانيين: افهموا الإسلام، فالإسلام هو المرشَّح في القرن الواحد والعشرين لقيادة العالم، حتى وإن أراد بعض الناس أن يقلل من شأن الإسلام، وأن يجعل من الإسلام عباداتٍ تنحصر في المساجد...

لا، فالإسلام لا يترك جزئية من جزئيات حياة الإنسان إلا ويفصل فيها، فإما أن يعطي الحكم فيها، أو يقدم القواعد التي تؤسس لهذا الحكم والتي يمكن من خلالها أن يجد المسلم ما يعينه على شرح وتفصيل وتوضيح وبيان.

إن الظرف والسلوك علاقةٌ نلاحظها في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

*** ففي الحديث المتفق عليه:**

(دخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ) وكانتا تغنيان بأناشيد مما ينشده الناس في أيام الجاهلية، **(فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ زاجرًا وناهيًا)** يخاطب عائشة رضي الله تعالى عنها أمّ المؤمنين: **(أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟)** أي: كيف يكون هذا الغناء الذي ينقل إنشاد الجاهلية في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ويسمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام الصدّيق أبي بكر فيقول: **(يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا)**.

وهكذا وجّه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم سيدَنا أبا بكر والأمةَ إلى التناسب بين الظرف والسلوك، فلا يمكن أن يكون هذا في ظرفٍ آخر، لكن هذا الظرف يسمح لهذا السلوك.

* **وفي الزفاف** نقرأ الحديث الذي أخرجه البخاري عن عائشة، **فقد زَفَّت امْرَأَةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا عَائِشَةُ، مَا كَانَ مَعَكُمْ لَهْوٌ؟ فَإِنَّ الأَنْصَارَ يُعْجِبُهُم اللَّهْوُ.**

وانظروا يا شباب كيف أنكم تتوجهون في بعض الأوقات إلى الجوانب الروحانية الصرفة، أو إلى القضايا الاقتصادية، أو إلى ما يختصّ بحركة الإنسان السلوكية التي من خلالها تتعمّر الأرض... فقد يكون الإنسان في أكثر أوقاته في حالة من الجِدّية تُنسيه طبيعة الإسلام.

وهكذا نبّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالزفاف الذي هو مقدمة زواج وأسرة، ومقدمة ذرية صالحة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيه: **(يَا عَائِشَةُ مَا كَانَ مَعَكُمْ لَهْوٌ؟)**.

هكذا يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون اللهو (بهذا اللفظ) مقترنًا بمقدمة إنشاء الأسرة، وبمقدمة إنشاء الذرية الصالحة التي من خلالها تتعمر هذه الأمة حسًّا ومعنىً.

قال: **(يَا عَائِشَةُ مَا كَانَ مَعَكُمْ لَهْوٌ؟ فَإِنَّ الأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمْ اللَّهْوُ)**، وهذا لفظ البخاري.

أما رواية ابن ماجة رحمة الله عليه للحادثة ففيها يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

(أَهْدَيْتُم الْفَتَاةَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: أَرْسَلْتُمْ مَعَهَا مَنْ يُغَنِّي؟) وهذا يشرح معنى اللهو الذي يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنه.

(قَالَتْ: لا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الأَنْصَارَ قَوْمٌ فِيهِمْ غَزَلٌ، فَلَوْ بَعَثْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ: أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ.. فَحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ).

وفي رواية شريك قال: **(فهل بعثتم معها بجارية تضرب بالدفّ وتغني؟ تقول عائشة: تقول ماذا؟)** تسأل النبي صلى الله عليه وسلم: أيّ شيء تريد يا رسول الله من هذه الجارية أن تقوله؟

قال: (تقول: أتيناكم أتيناكم.. فحيّونا نحيّيكم.. ولولا الذهب الأحمر.. ما حلت بواديكم) أي ما دخلت ولا نـــزلت بواديكم، **(ولولا الحبة السمراء.. ما سمنت عذاريكم)**.

هكذا يتناسب السلوك مع الظرف.

* وفي نفس الوقت ونحن نستعرض الحياة النبوية نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (كما في الحديث الصحيح المتفق على صحته في صحيحي البخاري ومسلم) يرى المهاجرين والأنصار في غزوة الخندق يحفرون في غداة باردة، فالنهار بارد والأنصار والمهاجرون يحفرون وهم في حالة شديدة من النصب والجوع، فيقول صلى الله عليه وسلم مرتجزًا:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَـــيْشُ الآخِـــرَة فَـــاغْفِرْ لِلأَنْصَـــارِ وَالْمُهَـــاجِرَة

وهكذا تغيرت الكلمات وظهرت الحوافز التي تتناسب مع السلوك، فالأنصار والمهاجرون يسمعون الارتجاز من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ينسيهم نَصَبَهم وجوعَهم.

لقد تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منشدٍ في هذه الحالة، لأنه نظر إلى ما يقدّمونه فأدخل الأنس إلى قلوبهم.

لقد نظر إليهم وهم في حالة الامتثال لأمر الله، وهم الذين ينفّذون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقومون بواجب الدفاع، ويحفرون الخندق، ولكنهم في غاية النَّصَب والجوع، ومن الذي كان المنشد لهم؟

كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المنشد لهم، يدخل الأنس على قلوبهم، ويقول:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَـــيْشُ الآخِـــرَة فَـــاغْفِرْ لِلأَنْصَـــارِ وَالْمُهَـــاجِرَة

وما يكون من الأنصار والمهاجرين إلا أن يجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتحول الجمع إلى حالة من الفرح والسرور وهم يقولون:

نَحْـــنُ الَّـــذِينَ بَـــايَعُوا مُحَمَّـــدَا عَلَى الْجِهَـــادِ مَـــا بَقِينَـــا أَبَـــدَا

إنها ملاحظة ما يكون فيه الإنسان في الظرف، فحوّل النبي صلى الله عليه وسلم حالة التعب والجوع إلى عرس، وحوّلها إلى حالةٍ يتبادل فيها رسولُ الله الإنشاد مع أصحابه، وتغمرهم حالة السعادة والأنس والسرور.

إنها ملاحظة الظرف..

هكذا يرتقي من يريد الدعوة إلى الله، فلا يوجد في الإسلام إلاَّ كلُّ سامٍ على مستوى المعاملات، وعلى مستوى الأحوال الشخصية، وعلى مستوى العبادات... وهناك تناسب في كلّ ظرف بين الظرف والسلوك.

* **الحاجّ بعد عرفات:** وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الذكر في عرفات، وما أدراك ما عرفات! اللهم بلغنا أن نكون في عرفات في وقت الحجّ الأكبر يا ربّ.

في عرفات يكون الإنسان مستغرقًا في حضرة ربّه، مكثرًا من ذكر الله، يقول: **"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير"**، ويكرّرها على أرض عرفات وقد خلع المخيط وتجرّد بين يدي ربه واستغرق في أعلى وأسمى ما يمكن أن يتصوره الإنسان من الحالات الروحانية.

وينـــزل من عرفات، وما يكاد يحطّ الرحال في مِنى بعد المزدلفة حتى يتناسب سلوكُه مع الظرف الجديد، فقد كان على أرض عرفات متبتّلاً روحانيًّا صرفًا، فيأمر النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا عليًّا وهو راكب أن يطوف على الناس ويصيح فيهم قائلاً:

(يا أيها الناس إنها أيامُ أكل وشرب ونساء وبعال) هذه رواية النسائي.

وفي رواية أحمد يقول سيدنا علي: **(أمرني النبي صلى الله عليه وسلم أن أنادي أيام مِنى أنها أيام أكل وشرب ولا صوم فيها)**.

ولماذا يكلّف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أشجعَ شجعانه وسيدَ أبطاله سيدَنا عليًّا (هذا البطل المغوار، الذي عاش في بيت النبوة، وتربّى في بيت رسول الله، ثم زوّجَه ابنته الزهراء فاطمة) أن يطوف بين الناس ليقول لهم: إيّاكم أن يكون سلوككم (بحسب الوهم الذي قد يرد إلى الإنسان) في الظرف الجديد مماثلاً للسلوك في الظرف القديم، وما بين الظرف القديم والجديد إلاّ يوم؟!

وقال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم للصحابيّ الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

(صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا) أي لضيفك، **(وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ)**.

وهكذا يدرك المسلم أن إسلامه يوجهه في كل ظرف، ويفهم أن إسلامه يرشده في كل وقت، ويعلم أن إسلامه صالحٌ ليكون الإمام في الحياة كلها في كل أصعدتها ومستوياتها.

اللهم بلّغنا رمضان، وسلّمنا لرمضان، وسلّم رمضان لنا يا رب العالمين، وتسلّمه منّا متقبَّلاً، واجعله سبب عتق من النار، بمَنّك وفضلك يا أكرم الأكرمين.

واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.